المقالة الأولى : ما هو الحزب الشيوعيّ ؟

توطئة

ظل ماوو : أم وابنها يعبران مدخل المتحف العسكري ببيكين، في استقبالهما تمثال كبير للديكتاتور السابق ماوو تسي تونغ. (ستيفان شايفر/أ.ف.ب/صور *جاتي*)

طيلة أكثر من 5000 سنة، أنشأ الشعب الصيني حضارة عظيمة على الأرض التي يرويها النهر الأصفر ونهر يانغتسي. على امتداد هذه الحقبة الطويلة من الزمن، وُلدت ممالك واندثرت ممالك، وازدهرت الثقافة الصينية وأفل نجمها. وتعاقبت أحداث كبرى ومُؤثرة على الساحة التاريخية للصين.

استنادًا لمُعظم المُؤرّخين، يفتتح عام 1840 بداية تاريخ الصين المُعاصر، بداية سفرها من الأصالة إلى الحداثة. لقد كان على الحضارة الصينية أن تُواجه أربعة مراحل عُظمى من التحدّيات والردود. المراحل الثلاثة الأولى تتمثل في هجوم قوات تحالف انكليزية- فرنسية على بيكين في مطلع السنوات 1860، ثمّ الحرب الصينية-اليابانية في 1894 (وتُسمّى أيضًا "حرب جياوو") والحرب الروسية-اليابانية في الشمال الشرقي للصين في 1906. وقد ردّت الصين على هذه التحدّيات الثلاثة بحركة تغريبٍ : استيراد البضائع والأسلحة الحديثة، وتغييرات هيكلية من خلال الحركة الإصلاحية في 1898 [1]، ومُحاولة لوضع نظام تأسيسيّ مع نهاية مملكة تشينغ، وأخيرًا ثورة كسينهاي (أو ثورة هسينهاي) [2] في 1911.

رغم أنّ الصين قد خرجت مُنتصرة في نهاية الحرب العالمية الأولى، فإنها لم تكُنْ من ضمن القوى الكبيرة. الكثير من الصينيّين كانوا يرؤن ردود بلادهم على هذه التحدّيات الثلاثة الكبيرة على أنها فشل. وكانت حركة 4 مايو [3] هي التي ستقود إلى المحاولة الرابعة للردّ على التحدّيات السابقة، مُفضية إلى التغريب الكامل للثقافة الصينية وذلك عبر الحركة الشيوعية وثورتها الجذرية.

هذا المقال يتناول بالتحليل نتائج المرحلة الأخيرة، أي الحركة الشيوعية والحزب الشيوعي. فلننظر عن كثبٍ إلى نتيجة ما اختارته الصين، أو ربّما علينا القول، ما فُرِضَ عليها. 160 سنة قد مرّت، وقرابة مائة مليون شخص قد ماتوا موتةً غير طبيعية، وتقريبًا كلّ شيءٍ في الثقافة والحضارة الموروثتيْن الصينيتيْن قد وقع تدميره.

I. الاعتماد على العنف والرعب للاستحواذ على السلطة والحفاظ عليها

الشيوعيون لا ينحدرون إلى مستوى إخفاء آرائهم ومشاريعهم. إنهم يُعلنون صراحةً أنّ أهدافهم لا يُمكن بلوغها سوى عبر "الإطاحة العنيفة بكامل النظام الاجتماعي السابق" [4]. هذا الشاهد مأخوذ من الفقرة الأخيرة في بيان الحزب الشيوعي، النصّ الرسمي للحزب الشيوعي (ح ش). العنف هو الوسيلة الوحيدة والأساسية التي وصل الحزب الشيوعي بواسطتها إلى السلطة.

.وانتقلت هذه الخاصّية إلى كلّ الأشكال اللاحقة للحزب التي ظهرت منذ نشوءه

في الواقع، الحزب الشيوعي الأوّل في العالم قد تأسّس بعد سنواتٍ كثيرةٍ من موت كارل ماركس. في السنة التي تـلتْ ثورة أكتوبر 1917، وُلِدَ "الحزب الشيوعي (البولشيفي) الروسي" (والذي عُرفَ أكثر فيما بعدُ باسم "الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي"). ونما هذا الحزب مستعملاً العنف ضدّ "الأعداء الطبقيين" وحافظ على وجوده أيضًا بواسطة العنف ضدّ أعضاء الحزب والمُواطنين العاديّين. أثناء عمليّات التطهير التي نظمها ستالين في السنوات 1930، قتـل الحزب الشيوعي السوفييتي .أكثر من 20 مليونـًا ممّن زُعِمَ أنهم جواسيس وخـوَنة، وأيضًا أولئك الدين يُشتبَهُ أنّ لديهم آراء مُخالفة

في البداية، بدأ الحزب الشيوعي الصيني (ح ش ص) بصفته فرعًا من الحزب الشيوعي السوفييتي أثناء العالمية الشيوعية الثالثة. إذن فقد ورث بطبيعة الحال نزعته للقتل. أثناء الحرب الأهلية الأولى بين الشيوعيين والكومينتانغ (ك م ت)، من 1927 إلى 1936 في الصين، أضحى عدد سكـّان مقاطعة "دجيانغ تسي" بضعة عشرة ملايين نسمة بعد أن كانوا يزيدون على العشرين .مليون نسمة. هذه الأرقام وحدها تـُعبّر تعبيرًا بليغـًا عن الكوارث التي سبّبها استعمال العنف

العنف هو ربّما وسيلة لا مناص منها للاستحواذ على السلطة السياسية، ولكن لم يوجد أبدًا نظام له نزعة واستعداد للقتل مثـل التي لدى الـح ش ص، وخاصّةً في الفترات الهادئة. منذ 1949، تجاوز عدد القـتلى الذين ذهبوا ضحيّة عنف الـح ش ص مجموع عدد ضحايا الحرب الأهلية ما بين 1927 و 1949. المُساندة المُقـدّمة للخمير الحُمر الكمبوديين هي مثال واضح على الطرق العنيفة للحزب الشيوعي. تحت حُكم الخمير الحُمر، تمّ قـتل أكثر من رُبـع الشعب الكمبوديّ، وهو يضمّ مُعظم الصينيين المُهاجرين وأبنائهم. والصين اليوم تـُواصل منع المُجتمع العالمي من تـتبـّع الخمير الحُمر عدليّا بغاية الاستمرار في إخفاء الدور الهامّ الذي .لعبه الـح ش ص في تلك المجزرة

لدى الـح ش ص روابط وثيقة مع القوات المُسلحة الثورية ومع الأنظمة الاستبدادية الأكثر قسوةً في العالم. إضافة إلى الخمير الحُمر، فإنّ الأحزاب الشيوعية لأندونيسيا، للفيليبين، لماليزيا، للفيتنام، لبيرمانيا، للاووس وللنيبال قد تمّ مُساندتها كلها من طرف .الـح ش ص. الكثير من مُسيّري هذه الأحزاب هم صينيّون، وبعضهم لا يزال مُختبئـًا في الصين اليوم

فظائع المجموعات الشيوعية الأخرى التي تنسبُ نفسها إلى الماويّة، مثل الدرب المُنير في أمريكا الجنوبية والجيش الأحمر في .اليابان، قد وقع إدانتها من طرف المُجتمع العالمي

إحدى النظريات التي يستعملها الشيوعيون هي الداروينية الاجتماعية. الحزب الشيوعي يـُطبـّق نظرية داروين في صراع الأجناس على العلاقات الإنسانية والتاريـخ الإنساني، مُدّعيًا أنّ صراع الطبقات هو القوّة الوحيدة المُحرّكة لـتنمية المُجتمع. وهكذا أصبح الصراع - "الدوغما" (الوثوقية) الأولى للـح ش ص - وسيلةً للحصول على السيطرة السياسية والحفاظ عليها. العبارات "الشهيرة لماوو تنـمّ بوضوح عن منطق بقاء الأقوى هذا :"مع 800 مليون بشر، كيف يُمكن أن تسير الأمور دون صراع ؟

حسب تأكيدٍ آخر لماوو شهير هو أيضًا، "يجبُ أن تـُقادَ ثورة ثقافية كلّ سبـع أو ثماني سنين" [5]. لقد استعمل الح ش ص القوّة بشكل مُتكرّر لكي يُرعب ويُخضع الشعب الصيني. كلّ صراع، كلّ حركة، كانا مُمارسةً للرعب، أرعدت قـلب الشعب الصيني .وأخضعته شيئـًا فشيئـًا للعبودية تحت نيْـر الـح ش ص

اليوم، أصبح الإرهاب العدوّ الأوّل للعالم الحُرّ المُتحضر. لقد مارس الـح ش ص، بفضل الجهاز الحكومي، إرهابًا عنيفًا، على نطاق أوسع بكثير، ولمُدّة أطول بكثير، وذا نتائج مُدمّرة ومُخرّبة أكثر. اليوم، في القرن الحادي والعشرين، حذار أن ننسى هذه الخاصّية الوراثية في الحزب الشيوعي، إذ ما كانه الحزب في الماضي، هو حتمًا الذي يُحدّد ما سيكونه في المُستقبل.

II. اللجوء إلى الكذب لتبرير العنف

يُمكن أن نقيس المستوى الحضاري من خلال مدى العنف الذي يستعمله نظام مّا. إنّ الأنظمة الشيوعية بلجوئها إلى العنف، قد تقهقرت بالحضارة الإنسانية خطوةً هائلةً إلى الوراء. ومن المؤسف أنّ الحزب الشيوعي قد تـمّ اعتباره تـقدّميًا من قِبَل أولئك الذين كانوا يظنّـون أنّ العنف هو وسيلة ضرورية للتـقدّم بالمُجتمع.

ينبغي أن نتأمّـل الاستسلام للعنف على ضوء الخاصّية الوراثية الثانية للحزب الشيوعي : وهو مهارته الفائقة ومُنقطعة النظير في استعمال الكذب والخداع.

منذ نعومة أظفارنا ونحن نرى في الولايات المُتحدة بلدًا صديقًا. هذه الفكرة مردّها، في ناحيةٍ منها، أنّ الولايات المُتحدة لم تحتلّ أبدًا بلدًا آخر، ولم تـُهاجم أبدًا الصين. وبالأساس، الانطباع الطيّب الذي يحمله الصينيون عن الولايات المُتحدة يرتكـز على "طبيعتها المُنفتحة والديموقراطية".

هذا ما كان قد نـُشِرَ بـ 4 يوليو 1947 في "السينهوا دايلي"، الجريدة الرسمية للح ش ص. ولم تكدْ ثلاث سنين تمرّ، إلاّ وكان الح ش ص قد أرسل جنودًا لكي يُحاربوا الفرق الأمريكية في كوريا الشمالية وكان يُصوّر الأمريكيين على أنهم الامبرياليين الأكثر فسادًا في العالم. كلّ صينيّ يعيش في شبه القارّة الصينية سيتفاجئ إن قرأ وجهة النظر تلك المكتوبة منذ أكثر من 50 سنةً. لقد منع الح ش ص كلّ إصدارٍ يحتوي على فقراتٍ مُماثلة لتلك وأصدر منها نـُسَخًا تـمّ إعادة كتابتها.

منذ وصوله إلى السلطة، استعمل الح ش ص الكذب في القضاء على أعداء الثورة (1950-1953)، أثناء "التعاون" بين الشركات العمومية والخاصّة (1954-1957)، وأثناء حركة "ضدّ-اليمينيين" (1957)، وأثناء الثورة الثقافية (1966-1976) وأثناء مجزرة تيانانمن (1989)، وكذلك أثناء ما وقع حديثًا من تقتيل للفالون غونغ (1999). وأشهر مثال، وشهرته مليئة بالأسى، هو تقتيل المُثقفين في 1957. لقد طلب الـح ش ص من المُثقفين أن يُعبّروا عن آرائهم ولكنه ما لبث إثر ذلك أن قتـّلهم بحُجّة أنهم "يمينيّون" مُستدلاً بأقوالهم كبراهين على "جرائمهم". وعندما ندّد البعض بهذا التقتيل بكونه مقلبًا أو مُؤامرةً محبوكةً في الخفاء، أعلن ماوو على الملأ :"ليس بمُؤامرةٍ محبوكةٍ في الخفاء، إنها خـُطـّة مكشوفة للجميع".

لعبت الخديعة والأكاذيب دورًا هامّا جدّا في استحواذ الح ش ص على السلطة والحفاظ عليها. إن للصين أطول تاريخ وأكمل تاريخ في العالم والمُثقفون الصينيون قد آمنوا دومًا بالتاريخ. استعمل الشعب الصيني التاريخ لكي يُقيّم الواقع الحاليّ بل وحتـّى بغاية تحقيق تـقدّم روحي على المستوى الشخصيّ. ولكي يخدم التاريخ النظام الحاليّ، فقد لجأ الـح ش ص بصفةٍ مُتكرّرةٍ ودائمةٍ إلى تحوير الحقيقة التاريخية وإخفاءها. في حملته الدعائية وفي إصداراته، أعاد الـح ش ص كتابة التاريخ، من تاريخ الفترات البعيدة مثل فترات "الربيع والخريف" (770-476 ق م) و "الممالك المُحاربة" (475-221 ق م)، وصولاً إلى الثورة الثقافية قريبة العهد. منذ 1949، استغرقت هذه التحويرات مدّة أكثر من نصف قرن، وكلّ الجهود الرامية إلى إعادة الحقيقة التاريخية إلى أصلها اصطدمت بمعارضة الـح ش ص.

عندما يُضحي العنف غير كافٍ للحفاظ على السيطرة، يلجأ الحـ ش ص إلى الخديعة والكذب اللذان يصلُحان كمُبرّر وقناع تـتوارى وراءه سيادة العنف وهيمنته. طبعًا، علينا الإقرار بأنّ الكذب والخديعة ليسا من اختراع الحزب الشيوعي، بل إنّ هذه رذائـل قديمة جدّا استعملها الـح ش ص بكلّ حرّية ودون رادع. لقد وعد الـح ش ص الفلاحين بأراضٍ، ووعد العمّال بمصانع، ووعد المُثقفين بالحرّية والديموقراطية، ووعد الجميع بالسلام. ولم يتـمّ الوفاء بأيّ من هذه الوعود. جـيل من الصـينيين مات مخدوعًا، وجـيل آخر تـتواصل إلى اليوم عمليّة نهبه واستنزافه. نعم، وهذا هو الجانب الأكثر تعاسة في الأمّة الصينية، وهو ما سبّب شقاء الصينيين أكثر.

III. مبادئ متغيّرة دومًا

أثناء الحوار التلفزي الذي دار في 2004 بمناسبة الانتخابات الرئاسية الأمريكية، قال أحد المترشحين أنه بإمكان المرء تغيير خُططه التكتيكية إن اقـتضى الأمر، ولكن عليه ألاّ يُغيّر أبدًا "مُعتقداته" أو "قيمه الأساسية"، وإلاّ فسيكون بكلّ بساطةٍ "غير جدير بالثقة" [6]. هذا التصريـح يُساعد على فهم مبدأ عامّ.

الحزب الشيوعي هو مثال نموذجي على ذلك. منذ ولادته، منذ أكثر من 80 سنةً، عقد الـح ش ص 16 مُؤتمرًا وطنيّا وغيّر 16 مرّةً المجلس التأسيسي للحزب. أثناء أكثر من 5 عقود من السلطة، قام الـح ش ص بخمس تغييرات كـُبرى في المجلس التأسيسي الصيني.

غاية الـح ش ص المُثـلى هي المساواة الاجتماعية والتي تـُفضي إلى مجتمع شيوعي. ورغم ذلك، أصبحت الصين، في ظلّ الحكم الشيوعي، البلد الذي يشهدُ أكبر عدم تكافؤ اقتصادي. الكثير من أعيان الحزب أصبحوا أثرياء ثراءًا طائلاً بينما 800 مليون نسمة يعيشون تحت خط الفقر.

الخط النظري الرئيسي للـح ش ص قد انطلق من الماركسية-اللينينية، وأضيفت إليه الماوية، ثمّ أضيفت إليه اليوم أفكار "دانغ سياوبينغ" ثمّ حديثًا أفكارجيانغ "التمثيلات الثلاث". الماركسية واللينينية والماوية لا تـتّفق أبدًا مع نظرية دانغ وايديولوجية جيانغ، بل إنها على طرف النقيض منهما. إنّ هذه الخلطة العجيبة من النظريات الشيوعية المُستعملة من طرف الـح ش ص لبالفعـل أمر نادر في تاريـخ الإنسانية.

لقد تضاربت مبادئ الحزب الشيوعي بشدّةٍ فيما بينها أثناء سيرورة تطوّرها، من فكرة الاحتواء الشامل الذي يتجاوز الدولة-الأمّة وصولاً إلى القوميّة المُتطرّفة اليوم، من القضاء على كلّ ملكيّة خاصّة وعلى كلّ الطبقات المُستغلّة وصولاً إلى المفهوم الحالي الذي يُشجّع الرأسماليين على الالتحاق بالحزب، مبادئ البارحة انقـلبت رأسًا على عقبٍ في سياسة اليوم، ونتوقـّع غدًا تغييراتٍ أخرى. مهما يكُن عدد المرّات التي يُغيّر فيها الـح ش ص مبادئه، فإنّ غايته تبقى واضحة : الحصول على السلطة والحفاظ عليها، وتمديد الهيمنة المطلقة على المجتمع.

عرف الـح ش ص لأكثر من عشر مرّاتٍ في تاريخه، صراعاتٍ داخلية، صراعات "حياة أو موت". في الحقيقة، كلّ هذه الصراعات كانت قد تزامنت مع انتقال للسلطة إثر تغييرات في المبادئ الأساسية للحزب.

كلّ تغيير في المبادئ قد ورد نتيجةً لأزمةٍ حتمية واجهها الـح ش ص، تـُهدّد شرعيّته وتـُهدّد بقاءهُ. إن يكُنْ العمل المُشترك مع حزب الكوومينتانغ، أو سياسة خارجية مُوالية لأمريكا، أو الإصلاح الاقتصادي وانفتاح السوق، أو أيضًا الدعوة إلى القوميّة، كلّ واحد من هذه القرارات قد أتى في فترة أزمةٍ وكان الهدف منه هو الحصول على السلطة أو تدعيمها. كلّ دورةٍ من دَوَرات

اضطهاد مجموعةٍ من الناس، متبوعة بقلبٍ للمعطيات وردّ الاعتبار للمضطهدين ومحاولة إنصافهم من جديد، كانت مربوطة بتغييرات في المبادئ الأساسية للـح ش ص.

هناك مَثَل غربيّ يقول أنّ الحقيقة ثابتة لا تتغيّر وأنّ الكذب ذو وجهٍ مُتغيّر. هذا المَثَل لا يخلو من الحكمة.

VI. كيف أنّ طبيعة الحزب تحلّ محلّ الطبيعة الإنسانية وتقضي عليها

الـح ش ص هو نظام مُستبدّ لينينيّ. منذ بدايات الحزب، تمّ وضع ثلاثة خطوط عريضة أساسية : الخط الثقافي، الخط السياسي، والخط التنظيمي. الخط الثقافي يتمثل في الفلسفة التي أسّست الحزب الشيوعي. الخط السياسي يتمثل في رسم الأهداف. والخط التنظيمي يتمثل في الكيفيّة التي بها يتمّ بلوغ هذه الأهداف في إطار تنظيمٍ مُحكم.

أعضاء الـح ش ص، مثلهم مثل الناس الذين يُسيّرهم الـح ش ص، يتلقـّوْن أوّلاً وقبل كلّ شيئٍ أوامر ؛ والمطلوب منهم هو الطاعة العمياء. تلك هي طبيعة الخط التنظيمي.

في الصين، أغلبيّة الناس واعون بازدواجيّة الشخصية الموجودة لدى أعضاء الـح ش ص. في حياتهم الخاصّة، هم بشر عاديّون لديهم مشاعر الفرحة والغضب والكآبة والمرح، ولديهم مزايا الناس العاديين وعيوبهم. ويُمكن أن يكونوا آباء، أو أزواج، أو زوجات، أو أصدقاء. ولكنّ طبيعة الحزب تقعُ فوق الطبيعة البشرية وفوق المشاعر. ما يقتضيه الحزب الشيوعي هو أنّ طبيعة الحزب تتجاوز الطبيعة البشرية. وبهذه الطريقة، يُصبح الشعور الإنساني نسبيّا وقابلاً للتطويع، بينما تُصبح طبيعة الحزب مُطلقة، فوق كلّ الشكوك وفوق كلّ التحدّيات.

أثناء الثورة الثقافية، آباء وأبناء تقاتلوا فيما بينهم، وأزواج وزوجات تصارعوا فيما بينهم، وأمّهات وبنات تبادلن الشتائم فيما بينهنّ، وطلبة وأساتذتهم عامل بعضهم بعضًا معاملة الأعداء. لقد شجّعت مبادئ الحزب على الصراع والكره. في الفترات الأولى لحكم الـح ش ص، وجد بعض أعيان الحزب نفسه عاجزًا عندما تمّ وصم أفراد أسرته بأنهم أعداء طبقيّون وتمّ قمعهم. لقد كان هذا، مرّةً أخرى، ينبع من طبيعة الحزب.

هيمنة طبيعة الحزب على الفرد هي نتيجة المذهبة الطويلة للـح ش ص. يبدأ التدريب منذ الحضانة، حيث تُشفَعُ الأجوبة التي يُريدها الـح ش ص بمكافأةٍ رغم أنها لا تتّفق لا مع المنطق السليم ولا مع الطبيعة الإنسانية للطفل. يتلقـّى المُتعلـّمون تعليمًا سياسيّا في التعليم الابتدائيّ، وفي التعليم الثانويّ، وصولاً إلى الجامعة. هم يتعلـّمون اتّباع الأجوبة السائدة التي يُقرّها الحزب، وإلاّ فلا يُسمَحُ لهم باجتياز الامتحانات وإحراز الشهادات.

على عضو الحزب، مهما تكُنْ أفكاره الداخلية، أن يتّبع خط سيْر الحزب عندما يتكلـّم في العَلَن. البُنية التنظيمية للحزب الشيوعي هي عبارة عن هَرَمٍ ضخمٍ، حيث نجدُ في قمّة الهَرَم السلطة المركزية التي تُهيمن على كلّ الدرجات. هذه البنية الفريدة هي إحدى الخاصّيات الأكثر أهمّية في نظام الـح ش ص. وهي تُساهم في إعطاء امتثال أعمى.

اليوم، تدهور الـح ش ص إلى كيان سياسيّ يُصارع للحفاظ على مصلحته الخاصّة. إنه لم يعُدْ يتّبع أيّا من الأهداف السامية للشيوعية. ومع ذلك، فإنّ البُنية التنظيمية للشيوعية قد تمّ الحفاظ عليها، واشتراطها للطاعة المُطلقة لم يتغيّر. هذا الحزب، الذي يضعُ نفسه فوق الإنسانية وفوق الطبيعة الإنسانية، يقضي على كلّ تنظيمٍ أو كلّ شخص يرى فيه تهديدًا أو إمكانيّة تهديدٍ لسيادته الخاصّة، إن يكُن هذا الشخص مُواطنًا عاديّا أو مُوظفًا ساميًا من موظّفي الـح ش ص.

V. شيطان يقف ضدّ الطبيعة والطبيعة الإنسانية

تحت قبّة السماء، كلّ المخلوقات تمرّ بالدورة التالية : ولادة، نضج، تقهقر، وموت.

خلافًا للنظام الشيوعي، فإنّ المجتمعات غير الشيوعية، حتّى تلك التي تُعاني من استبداد نظام كليانيّ، نجدُ أنها تسمحُ، أحيانًا كثيرة، بقدر مُعيّن من استقلاليّة التنظيم ومن حرّية اتّخاذ القرار. لقد كان المجتمع الصيني القديم يخضعُ لحكمٍ وفق بُنيةٍ ثنائيةٍ. في المناطق الريفية، كانت العشائر تُكوّن مركز تنظيم اجتماعي مُستقلّ بينما المناطق الحضريّة كانت تنتظمُ حول رابطة النقابات. نظام الحكم الذي كان يمتدّ من الأعلى إلى الأسفل، كان يقفُ عند مستوى الأرياف.

لقد كان النظام النازي، وهو ربّما أقسى نظام ديكتاتوري إلى جانب النظام الشيوعي، كان يسمحُ ببقاء الملكيّة الخاصّة. ولكنّ الأنظمة الشيوعية قد قضت على كلّ شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي المُستقلّ عن الحزب، وعوّضته ببُنىً سلطويّة مركزية، من الأعلى إلى الأسفل.

إن كانت البُنى الاجتماعية التي ترتفع انطلاقًا من القاعدة تسمحُ بصفة طبيعية باستقلاليّة الفرد أو المجموعة، إذن فالنظام الشيوعي في أساسه هو مُضادّ للطبيعة.

لا يقترح النظام الشيوعي مقاييس كونيّة للطبيعة الإنسانية. مفهوم الخير والشرّ، مثله مثل القوانين والقواعد، كلها يتمّ التعامل معها بطريقة اعتباطية. الشيوعيون لا يسمحون بالقتل، إلاّ بالنسبة لمن يُعتبَرُ أنهم أعداء الحزب الشيوعي. برّ الأبناء بالآباء خصلة جيّدة، إلاّ إذا كان الآباء ممّن يُعتبَرُ أنهم أعداء طبقيّون. الإحسان، والاستقامة، والتصرّف المُهذب، والحكمة والإخلاص، هي أشياء حسنة، ولكن لا يجوز تطبيقها عندما يكون الحزب غير مُوافق أو عندما لا يُريد أن يضع في اعتباره هذه الفضائل الأصلية. الحزب الشيوعي يقلب تمامًا المقاييس الكونية للطبيعة الإنسانية، إنه ينبني على مبادئ تقعُ على طرف النقيض من الطبيعة الإنسانية.

المُجتمعات غير الشيوعية تضعُ عمومًا في اعتبارها ثنائية الطبيعة الإنسانية من خير وشرّ وهي تتأسّس على مواثيق اجتماعيّة موضوعة للحفاظ على توازن المجتمع. ومع ذلك، في المُجتمعات الشيوعية، ينتفي مفهوم الطبيعة الإنسانية في حدّ ذاته، ولا يتمّ الاعتراف لا بالخير ولا بالشرّ. حسب ماركس، القضاء على مفهوم الخير والشرّ يُمكّن من الإطاحة كلّيًا ببُنية المجتمع القديم.

الحزب الشيوعي لا يعتقد في وجود الله، ولا يحترم حتى الطبيعة. "مُحاربة السماء، مُكافحة الأرض، الصراع ضدّ الإنسان – الحياة التي تُعاشُ هكذا تكون مليئةً بالفرحة." كان هذا شعار الح ش ص أثناء الثورة الثقافية. وهكذا فقد عانى كلّ من الشعب والأرض قدرًا كبيرًا من العذاب.

يتوارث الصينيون الاعتقاد التالي وهو وحدة السماء والإنسان. لقد قال لاوو تسي في الداوو دي دجينغ (تاوو تي كينغ) :"الإنسان يتبع الأرض، والأرض تتبع السماء، والسماء تتبع الطاوو، والطاوو يتبع الطبيعة" [7]. الإنسان والطبيعة يُوجدان داخل علاقة انسجام في رحاب التواصل الكونيّ.

الحزب الشيوعي هو أيضًا نوع من المخلوقات. ولكنه يتعارض مع الطبيعة، ومع السماء، ومع الأرض، ومع الإنسان. إنه شيطان شرّير يقف ضدّ الكون.

بعض مظاهر هذا التملـّك الشرّير .IV

أعضاء الـح ش ص أنفسهم لا يُساهمون أبدًا في أنشطة إنتاجية أو إبداعية، عندما يحصلون على السلطة، يَعْلـَقون بالناس، يُهيمنون عليهم ويستخدمونهم. وخشية فقدان هذه الهيمنة، يبسطون نفوذهم إلى حدود أسفل السلّم الاجتماعي. يتحكّمون في موارد الإنتاج ويستنفدون ثروات المجتمع.

في الصين، يمتدّ الـح ش ص إلى كلّ مكانٍ ويُسيطر على كلّ شيءٍ، ولكن لا أحد قد تمكّن أبدًا من رؤية حساب الـح ش ص، بل فقط حسابات الدولة، وحسابات الولايات المحلـّية والشركات. من الحكومة المركزية وصولاً إلى اللجان القروية في الأرياف، يشغـَلُ الموظفون البلديون دائمًا منصبًا دون منصب الإطارات الشيوعية، وهكذا فالإدارات المحلـّية يجب أن تخضع لتعليمات خلايا الحزب الشيوعي الموجودة معها في نفس المستوى. مصاريف الحزب تـُغطـّيها السّلط البلدية ويتـمّ احتسابها مع نظام البلدية.

تنظيم الـح ش ص، مثـله مثـل شيطان شرّير، يعْلـَقُ بكلّ خليّةٍ من خلايا المجتمع الصيني، مثـلما يتبع الظلّ صاحبهُ. هذا التنظيم ينفـَذُ بعُمق إلى كلّ شُعَيـْرةٍ وكلّ خليّةٍ في المجتمع، بواسطة أوعيته الدقيقة، أوعية امتصاص الدماء لديه، مُهيمنـًا بهذه الطريقة على المجتمع ومُستخدمًا إيّاه.

هذه البُنية الفريدة، بُنية التملـّك الشرّير هذه، قد وُجِدت في التاريـخ الإنساني القديم، بصفةٍ جزئية أو وقـتية. ولكنها لم تـُوجدْ أبدًا لفترةٍ طويلةٍ مثـل التي استغرقها الـح ش ص، ولم تـُسيطر أبدًا على المجتمع بصفةٍ كـُلـّيةٍ مثـلما فعـل الـح ش ص.

لهذا السبب يعيش الفلاحون الصينيون في ضنك العيش، ويقومون بأعمال تـُقابَلُ بالجحود والنكران. لا فقط عليهم أن يـُوفـّروا حاجيات الموظفين البلديّين التقـليديين، ولكن أيضـًا حاجيات الإطارات الشيوعية، المُتواجدة أحيانـًا بأعداد أكبر.

لهذا السبب، فـقد العمّال الصينيون موارد رزقهم بأعدادٍ كبيرةٍ. أوعية امتصاص الدماء للـح ش ص الموجود في كلّ مكان والمُتملـّك بهم قد استنزفت خزائن مصانعهم طيلة سنواتٍ كثيرةٍ.

لهذا السبب يصعُبُ جدّا على المُثـقفين الصينيين أن يحصلوا على حرّية التفكير. بالإضافة إلى رؤسائهم ومُسيّريهم في العمل، فإنّ ظـلّ الـح ش ص يُخيّم على كلّ مكان، لا همّ له سوى مراقبة الناس.

يحتاج الشيطان الشرّير إلى سيطرة تامّة ومُطلقة على عقـل وروح من تملـّك به لكي يستقي الطاقة التي يحتاجها لمواصلة العيش.

حسب علم السياسة الحديث، تـتأتـّى السلطة من ثلاثة موارد رئيسية : القوّة، الثروة، والمعرفة. لم يتردّد الـح ش ص أبدًا في استعمال وتوظيف السيطرة والقوّة لنهب مُمتلكات الناس. بل وأسوء من ذلك : لقد حرم الناس من حرّية التعبير وحرّية الصحافة. لقد اغتصب عقول الناس وإرادتهم لكي يُحافظ على تحكـّمه المُطلق في السلطة. ما سبق يُمكـّننا أن نستنتج أن تملـّك الـح ش ص الشرّير يُسيطر على الناس بإحكامٍ يصعُبُ معه مقارنته بأيّ نظامٍ آخر في العالم.

VII. أن ننظر إلى أنفسنا ونتخلـّص من الـح ش ص

في بيان الـح ش ص، أوّل وثيقة في برنامج الحزب الشيوعي، يُعلن ماركس :"في 1848، هناك شبـح يُخيّم على أوروبّا : شبـح الشيوعية" [8]. بعد قرن من ذلك، لم تعُدْ الشيوعية مُجرّد شبـح، بل اكتست جسمًا ماديًّا مُحدّدًا. لقد انتشرت في جميـع أنحاء العالم مثـلما ينتشر الوباء، قاتـلةً في طريقها مئات الملايين من الناس، وناهبةً مُمتلكات مئات الملايين من الأشخاص، بما في ذلك عقولهم وأرواحهم التي وُلِـدت حُرّة.

المبادئ الأساسية للحزب الشيوعي هي الاستحواذ على كلّ ملكيّة خاصّة من أجل القضاء على "الطبقة المُستغِـلّة". الملكيّة الخاصّة هي القاعدة التي تـقوم عليها كلّ الحقوق الاجتماعية وأحيانًا كثيرةً ما تنضوي داخلها الثقافة القومية. الناس الذين يـقعُ نهب أملاكهم الخاصّة يفـقدون أيضًا حرّية تفكيرهم وعقولهم ؛ ويُمكن حتـّى أن يفـقدوا حرّية التمتـّع بحقوق اجتماعية وسياسية.

في مُواجهة أزمة حياة أو موت، وجد الـح ش ص نفسه مُجبَرًا على القيام بإصلاح على مستوى الاقتصاد الصيني في السنوات 1980. بعض حقوق التمتـّع بالملكيّة الخاصّة تـمّ إرجاعها للناس. وقد خلق هذا ثغرةً في هذه المَكنة الضخمة، مَكنة السيطرة الدقيقة والمُحكمة للـح ش ص. وهذه الثغرة آخذة في الاتـّساع أكثر فأكثر تـبَعًا لسعي أعضاء الـح ش ص المُتواصل لجمع ثروات خاصّة.

هذا الكائن الطفيليّ الذي هو الـح ش ص، والذي بقي في مكانه بواسطة العنف، والكذب، والتغيير المتواصل للمظهر والصورة، قد أخذت تبدو عليه اليوم علامات التدهور والعصبية عند أدنى مشكلة : إنه يُحاول أن يبقى على قيد الحياة، ماضيًا في تجميـع المزيد من الثروات ومُدعّمًا نفوذه، ولكنّ هذه الأفعال ليس من شأنها سوى أن تزيد من خطورة الأزمة.

تبدو الصين الحالية مُزدهرة، ولكنّ الصراعات الاجتماعية قد احتدمت فيها إلى درجة لم يتـمّ بلوغها من قبلُ أبدًا. ربّما سيُحاول الـح ش ص أن يتراجع خطوةً إلى الوراء، مُستعملاً الأساليب السياسية التي استُعمِلت في الماضي، فيُحاول أن يُصلح ما أفسده في مجزرة ساحة تيانانمن أو الفالون غونغ، أو يُحاول أن يتـّخذ مجموعة أخرى كعدوّ، ويُواصل بهذا حكمه الإرهابيّ.

إزاء تحدّيات المائة سنة الأخيرة، كان جواب الأمّة الصينية هو استيراد الأسلحة، وإصلاح النظام وتحويره، وتفجير ثورات مُتطرّفة وعنيفة. أعداد لا تُحصى من الناس قد قُـتِلت والثقافة الموروثة الصينية قد تـمّ رميها. يبدو أنّ هذه الأجوبة باءت بالفشل. وعندما احتـلّ الاضطراب والقـلق مكانًا في نفوس الصينيين، استغلّ الـح ش ص الظرف لكي يدخُـل في مسرح الأحداث. ومنذ ذلك الحين وهو يُمسك في قبضة نفوذه هذه الحضارة، آخر الحضارات القديمة التي لا تزال حيّة في العالم.

في التحدّيات القادمة، سيكون على الشعب الصيني مرّةً أخرى أن يقوم بخيارات، لا مناص من ذلك. ومهما تكُنْ هذه الخيارات، فإنّ على كلّ مواطن صيني أن يعي أنه إن واصل تعليـق أدنى أملٍ له على الـح ش ص، فلن يكون في ذلك سوى زيادة في حدّة الأضرار التي ألحِقت بالأمّة الصينية، ولن يكون ذلك سوى حقنًا لطاقة جديدة تنضاف للتملـّك الشيطاني للـح ش ص.

يجبُ علينا أن نتخلـّى عن كلّ وهمٍ، أن نتمعّن في الأشياء بأنفسنا وألاّ نترك أنفسنا تكون مرتعًا للجشع والكره. فقط حينها سيتسنّى لنا فكّ عقالنا من نصف قرن من هذا الكابوس، من سيطرة التملـّك الشيطاني للـح ش ص على امتداد الـ 50 سنة الماضية. من أجل أمّةٍ حُرّةٍ، نستطيـعُ أن نـُعيد الحضارة الصينية إلى بريقها، هذه الحضارة التي تـقوم على احترام الطبيعة الإنسانية وعلى الرحمة بالجميـع.

: ملاحظات

1- إصلاح المائة يومٍ كان إصلاحًا دام 103 يومًا، من 11 يونيو إلى 21 سبتمبر 1898. أمر الإمبراطور غوانغسو من مملكة تشينغ (1875-1908) بمجموعةٍ من الإصلاحات الرامية إلى إدخال تغييرات هيكلية واجتماعية عميقة. وقد قام أطراف من النخبة الحاكمة المُحافظة بمُعارضة هذا الإصلاح بشدّة. فقامت الإمبراطورة دواغر سيسي بتدبير عمليّة انقلاب سياسي في 21 سبتمبر 1898، مُجبرةً المُصلح الشابّ غوانغسو على الانسحاب، وقد ساندها في ذلك المُحافظون المُتطرّفون كما ساعدها التأييد الصّامت للانتهازيّ السياسي يوان شيكاي. أخذت سيسي السلطة بصفتها وصيّة على الحكم. وانتهى إصلاح المائة يومٍ بحلّ العقود الجديدة وبإعدام ستّة من المُدافعين الرئيسيّين عن الإصلاح.

2- ثورة سينهاي (أو ثورة هسينهاي)، سُمّيت باسم السنة الصينية سينهاي (1911)، وقعت فيها الإطاحة بحكم عائلة تشينغ الصينية (10 أكتوبر 1911، 12 فبراير 1912) وتأسيس الجمهورية الصينية.

3- حركة 4 مايو كانت أوّل حركة شعبية في تاريخ الصين الحديث، وبدأت في 4 مايو 1919.

4- الرابط : //www.marxists.org/francais/marx/works/1847/00/kmfe18470000d.htm.

5- رسالة من ماوو تسي تونغ إلى زوجته دجيانغ تشينغ (1966).

6- هذه المعلومة مُستقاة من الموقع التالي : http://www.debates.org/pages/trans2004a.html.

7- طاوو تي كينغ، الفصل 25.

8- الرابط : //www.marxists.org/francais/marx/works/1847/00/kmfe18470000a.htm.

جميع الحقوق محفوظة للناشر - صحيفة الإيبوك تايمز

EPOCH TIMES, 229 W. 28TH ST., 6TH FL., NEW YORK, NY 10001, UNITED STATES (212) 239-2808

© Copyright 2003-2018 Epoch Times